بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الأول

٠٢/ ٠٤/ ١٤٤٠

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أمَّا بعد.. فالرِّسالة التبوكيّة للإمام العلَّامة المربِّي الفهّامة ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، رسالة عظيمة، سيَّرها رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ من تبوك عام ٧٣٣هـ وعمره وقتئذ يزيد علىٰ الأربعين بقليل، كتبها في طريق عودته من الحج في شهر الله المحرم، وبعثها لبعض أصحابه ورفقائه في الشَّام يُناصحهم فيها علىٰ التَّعاون علىٰ الخير، والتآزُر في طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مُنطلقًا من قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خاتمة الآية الثانية من سورة المائدة: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإثم وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

حيث ذكر اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآية نوعين من التَّعاون، نوعًا أمر به ونوعًا نهىٰ عنه، فوجب علىٰ أهل الخير، وأهل الصَّلاح، وأهل الفضل، أن يكونوا علىٰ دِراية بالتَّعاون الذي أمر به فيكونون متعاونين عليه كما أمرهم الله، وعلىٰ دِراية بالتَّعاون الذي نهىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه فلا يكونون متعاونين عليه؛ بل يكونوا متعاونين علىٰ البعد عنه والسلامة منه.

وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ بنىٰ رسالته التبوكيّة، أو نصيحته الأخوية علىٰ هذه الآية الكريمة، فانطلق منها؛ لأنها ترسم لأهل الخير ولأهل الفضل المنهج الذي ينبغي أن يكونوا عليه، وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ في ثنايا هذه الرِّسالة مباحث نفيسَة جدًّا تتعلَّق بهذا الباب، وتتعلق **بزاد المُسافر إلىٰ الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لأنّ أهل الإيمان والطَّاعة في سفر إلىٰ الله، والمسافرون يحتاجون لتتحقق لهم الراحة والمقاصد في سفرهم إلىٰ تعاون؛ تعاونٌ علىٰ ما فيه خير هذا السَّفر وصلاحه، وتعاونٌ علىٰ البعد علىٰ ما فيه المضرَّة لهذا السَّفر، فالمسافر إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ له زاد في هذا السَّفر، وبحاجة إلىٰ إخوانٍ يعينونه ويشدُّون من أزْره لكي تتحقَّق لهم جميعًا النجاة.

هذه الرِّسالة التي بين أيديكم، الرِّسالة التَّبوكيّة للإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، رسالة عظيمة جدًّا نحتاج إليها في هذا الزمان حاجة ماسَّة، وبخاصة مع وجود هذه الأجهزة الحديثة التي يسَّرت التَّواصل، وهذا التَّواصل الذي تيسر من خلال هذه الأجهزة من الناس من استعمله في التَّعاون علىٰ الخير، ومنهم من استعمله في التَّعاون علىٰ الشَّر والعياذ بالله، ولهذا نحتاج فعلًا أن نقرأ هذه الرِّسالة وهذه الوصيّة المباركة وأن نفعّلها في حياتنا، وأن نفعّلها أيضا في استعمالاتنا لهذه الأجهزة، لنكون بإذن الله عَزَّوَجَلَّ من المتعاونين علىٰ البر والتقوىٰ،

من السَّالمين من التَّعاون علىٰ الإثم والعدوان أعاذنا الله أجمعين من ذلك.

هذه الرِّسالة لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ يحتاجُ إليها طالب العلم وغيرُه؛ لأنَّها ترسِم للمسلم منهج حياة، وطريق أمان، وسبيل نجاة، ودرْب فوز وسعادة في الدُّنيا والآخرة، وتفتح له أبوابًا في الهداية وسلوك طريق النَّجاة، وتدبُّر القرآن الكريم والعناية بلزوم منهجه القويم، والاهتداء بهداياته المُباركة العظيمة.

نسألُ الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه الحُسنىٰ وصفاته العليا الذي يسَّر لنا هذا الاجتماع لقراءة هذه الرِّسالة لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، أن ييسِّر لنا الانتفاع بها، وأن يهدينا إليه أجمعين صراطًا مستقيمًا، وأن يجعلنا من المتعاونين علىٰ البرِّ والتقوىٰ، وأن يعيذنا من سبيل التَّعاون علىٰ الإثم والعدوان، بمنِّه وكرمه.

ونشرع مستعينين بالله تبارك وتعالىٰ، مستمنحين منه المعونة والتوفيق في قراءة هذه الرسالة.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وعليه نتوكَّل، قال الشيخ الإمام العالم العلامة محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيِّم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ وأرضاه في كتابه الذي سيّره من تبوك ثامن المحرم سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة من الهجرة النبوية، بعد إرسال المنظومة التي أوّلها:

إذا طلعــت شــمس النهــار فإنهــا ....

(إذا طلعــت شــمس النهــار فإنهــا أمــارة تســليمي علــيكم فســلموا)

هذه منظومة نفيسة جدًّا، نظمها الإمام ابن القيم معبرا فيها عن محبته العظيمة لإخوانه اللذين يجمعه وإياهم اتباع سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، ولزوم نهجه القويم، تشتمل علىٰ معانٍ عظيمة وحكم بليغة ووصايا نافعة، وإيقاظٍ لمعاني هذه المحبة والأخوة الدِّينية والرابطة الإيمانية، فبعد إرسال المنظومة تلك كتب هذه الوصية رَحِمَهُ اللَّهُ في الثامن من شهر الله المحرَّم، وكان وقتئذ في تبوك ولهذا سُمِّيت التبوكية، وكثير من كتب أهل العلم وبخاصة الشيخين ابن تيمية وابن القيم، كثير من كتبهم بأسماء بلدان، مثل: «الواسطية»، و«الصفدية»، و«الحموية»، و«الرسائل المصرية»... إلىٰ غير ذلك كثير جدا، وعُرفت بأسماء تلك البلدان في الغالب؛ لأنّ السؤال الذي ورد عليه فأجاب بتلك الرِّسالة مفصِّلا في ما سأل عنه السائل، فنُسبت إلىٰ البلد الذي جاء منه السؤال.

وهذه الرسالة كتبها ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ابتداءً من تبوك، وسيَّرها إلىٰ بعض أصحابه فعرفت بالرِّسالة التبوكية لأنه كتبها في تبوك، وبعثها لبعض رُفقائه، بعثها في طريقه؛ في سيره، وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ممَّا عُرف عنه استغلال السفر في التأليف، ولم يكن السَّفر بالوسائل المريحة التي نشهدها وننعم بها في هذا الزَّمان، وإنما كان السَّفر علىٰ الإبل، وفيه من المشقة ما لا يخفىٰ في الكتابة والتأليف؛ لكن عددا من مؤلفاته كان يكتبها في طريق السفر، ويعتذر أحيانا عن بعض التفاصيل بأنه في طريق سفر، فانظر هذه الهمَّة ما أعظمها، وهذه العناية بالوقت ما أجلها، حتىٰ السفر الذي هو عناء وجَهد ومشقة لم يغِب عنه فيه النُّصح لإخوانه وبذل الخير لهم.

و«زاد المعاد» كتابه الحافل المعروف ممَّا يذكر أنه كتبه في طريق السَّفر، وكُتب أخرىٰ له أيضًا، فهذا فيه الهمّة العالية من جهة، وفيه أيضا عظم النُّصح؛ لأنه عادة لما تكون في السفر يكون ذهنك متركز في ما ستلقاه في سفرك، وكيف تصل، ومن يستقبلك، وأين تسكن، وأين تذهب... مشغول بنفسك، لكن أن ترتقي الهمة هذا المرتقىٰ العظيم ويكتب هذه الرسالة الرصينة المتينة نصيحةً لبعض إخوانه بهذا الإتقان، فهذا شيءٌ من الفتوحات الربَّانية والهبات الإلهية ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحديد].

فصل

وبعد حمد الله بمحامده التي هو لها أهل، والصلاة والسلام علىٰ خاتم أنبيائه ورسله، محمد ﷺ، فإنَّ الله سبحانه يقول في كتابه: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة].

وقد اشتملت هذه الآية علىٰ جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، فيما بينهم في بعضهم بعضًا، وفيما بينهم وبين ربِّهم، فإن كل عبد لا ينفك عن هاتين الحالتين وهذين الواجبين: واجبٍ بينه وبين الله، وواجبٍ بينه وبين الخلق.

بدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هذه الرِّسالة أو هذه الوصية بحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمحامده التي هو لها أهل، وهذا يتناول جميع ما يُحمد الله تبارك وتعالىٰ به، وهو جلَّ وعلا يُحمد علىٰ أسمائه الحسنىٰ العظيمة وصفاته العليا الجليلة وعلىٰ نِعمه التي لا تعدُّ ولا تحصىٰ، فبدأ بحمد الله جل وعلا بمحامده التي هو لها أهل، وهو أهل الثَّناء وأهل الحمد وأهل المجد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبالصَّلاة والسلام علىٰ رسوله ومُصطفاه ونبيه ومجتباه محمَّد صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

ثم ذكر هذه الآية التي بدأ بها هذه الوصية وبنىٰ عليها هذه الرِّسالة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة]، وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ هذه الآية اشتملت علىٰ جميع مصالح العباد، فهي آية فاذَّة جامعة، وهي بتعبيرٍ أدق: جزء من خاتمة الآية الثانية من سورة المائدة، فهذا الجزء من الآية وهو قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢﴾ آية فاذّة جامعة جمعت جميع مصالح العباد في المعاش والمعاد، فيما يتعلَّق في معاملتهم مع الله، وفيما يتعلَّق بمعاملة بعضهم بعضًا، جمعت ذلك بأوجز عبارة وأبينها وأوفاها.

وكما أشرتُ فإنّ هذه الآية فيها ذِكرٌ لنوعين من التَّعاون: نوع أمر الله به، ونوع نهىٰ الله عنه، وكلُّ ذلك سيفصله ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، ذكر أنَّ كلَّ عبدٍ لا ينفك من هاتين الحالتين وهاذين الواجبين، ما يتعلق في التعامل بين العباد، وما يتعلَّق في التعامل مع الله، أما التعامل مع العباد فيقوم علىٰ ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾، وأما التعامل مع الله فيقوم علىٰ قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ كلُّ ذلك سيأتي تفصيله عند ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

بدأ فيما بين العبد وبين الخلق لأنه بُدئ به بالآية، فبدأ بما بُدئ به في الآية.

فأما ما بينه وبين الخلق من المعاشرة والمعاونة والصحبة، فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم وصحبته لهم تعاونا علىٰ مرضاة الله وطاعته، التي هي غاية سعادة العبد وفلاحه، ولا سعادة له إلا بها، وهي البر والتقوىٰ اللذان هما جماع الدِّين كله، وإذا أُفرد كلُّ واحد من الاسمين دخل فيه المسمَّىٰ الآخر، إما تضمنا وإما لزوما، ودخوله فيه تضمنًا أظهر، لأن البر جزء مسمَّىٰ التقوىٰ، وكذلك التقوىٰ فإنه جزء مسمَّىٰ البر، وكون أحدهما لا يدخل في الآخر عند الاقتران لا يدل علىٰ أنه لا يدخل فيه عند الانفراد. ونظير هذا لفظ الإيمان والإسلام، والإيمان والعمل الصَّالح، والفقير والمسكين، والفسوق والعصيان، والمنكر والفاحشة... ونظائره كثيرة.

فيما يتعلق بتعامل العباد ومعاشرتهم وتناصحهم وصحبتهم، الواجب كما ذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أن يكون تعاونًا علىٰ مرضاة الله وعلىٰ طاعة الله وعلىٰ ما تكون به السعادة عند لقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويحدِّد معالم ذلك قول الله في هذه الآية ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾.

أخذ رَحِمَهُ اللَّهُ يبيِّن المراد بهذا الذي أمرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتعاون عليه، قال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ بهذا أمرنا جل وعلا، إذن لابد؛ بل يتأكد علينا ويتحتَّم علينا أن نعرف البر ما هو، وأن نعرف التقوىٰ ما هي، من أجل أن نتعاون. ولهذا شرع رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في بيان حقيقة البر وحقيقة التَّقوىٰ؛ لأن التعاون عليهما فرعٌ عن المعرفة بهما والدِّراية بهما، فما هو البر؟ وما هي التقوىٰ؟ الذي أمرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتَّعاون عليهما.

وهاتان الكلمتان (البر والتقوىٰ) هما جِماع الدِّين كلِّه، أي: الدين كله يرجع إلىٰ هاتين الكلمتين (البر والتقوىٰ)، وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ قاعدة نفسية جدًّا لابدَّ أن يفقهها طالب العلم، وهي أنَّ من الأسماء ما يكون شاملًا لمسمَّيات متعدِّدة عند إفراده وإطلاقه، فإذا قُرن ذلك الاسم بغيره صار دالًّا علىٰ بعض تلك المسمَّيات، والاسم المقرون به دالٌّ علىٰ باقيها، ويلخِّصها بعض أهل العلم بقولهم: **إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت**، وهذا في أسماء كثيرة، مثل: البر والتقوىٰ، (والإيمان والإسلام، والإيمان والعمل الصالح، والفقير والمسكين)، وعبارات كثيرة جدًّا إذا اجتمعت افترقت (أي في المعنىٰ)، وإذا افترقت في الذِّكر، ذكر كل واحد منهما مفردا عن الآخر جمعت المعنىٰ كلَّه، وهنا في هذه الآية جمع بين البر والتقوىٰ في نصٍّ واحد، وعليه فيكون البر له معنىٰ والتَّقوىٰ لها معنىٰ، ولكن لو ذُكر البر وحده شمل معنىٰ التَّقوىٰ، وإذا جاء الأمر أيضا بالتقوىٰ شملت معنىٰ البر، وإذا ذُكرا معا كما في هذه الآية الكريمة فالبر له معنىٰ والتقوىٰ لها معنىٰ، فاحتاج المقام إلىٰ أن نعرف ما البر هنا حال اقترانه بالتقوىٰ؟ وما التقوىٰ هنا حال اقترانها بالبر؟

يقول: (إذا أُفرد كل واحد من الاسمين دخل في مسمَّىٰ الآخر)، يعني إذا ذكر التَّقوىٰ وحده دخل فيه البر،

وإذا ذكر البر وحده دخلت فيه معاني التقوىٰ، (إمَّا تضمُّنا وإما لزومًا، ودخوله فيه تضمُّنًا أظهر، لأن البر جزء مسمىٰ التقوىٰ، وكذلك التقوىٰ فإنها جزء مسمَّىٰ البر)، ولهذا عند إطلاق أيٍّ منهما فإنه يتناول معنىٰ الآخر، قال: (وكون أحدِهما لا يدخل في الآخر عند الاقتران لا يدلُّ علىٰ أنه لا يدخل فيه عند الانفراد)؛ أنّ هذا باب وهذا باب.

وهذه قاعدة جليلة، من أحاط بها زال عنه إشكالات كثيرة أشكلت علىٰ طوائف كثيرة من الناس، ولنذكر من هذا مثالا واحدا يُستدل به علىٰ غيره، وهو البر والتقوىٰ.

نعم، يعني اقتصاره علىٰ البر والتقوىٰ: أولا لأنه هو مقصود الرسالة، لأن الرسالة بناها علىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾، ومن جهة أخرىٰ فيه توضيح لهذه القاعدة العظيمة، التي ذكر رَحِمَهُ اللهُ أنها تزيل إشكالات كثيرة.

فإنّ حقيقة (البر) هو الكمال المطلوب من الشيء، والمنافع التي فيه والخير، كما يدل عليه اشتقاق هذه اللفظة وتصاريفها في الكلام، ومنه البُرُّ بالضَّم، لكثرة منافعه وخيره بالإضافة إلىٰ سائر الحبوب، ومنه رجل بارّ، وبَرٌّ، وكِرام بَرَرة، والأبرار، فالبِرُّ كلمة لجميع أنواع الخير والكمال المطلوب من العبد، وفي مقابلته (الإثم) وفي حديث النّواس بن سمعان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ قال له: «**جئت تسأل عن البر والإثم؟**» فالإثم كلمة جامعة للشر والعيوب التي يُذم العبد عليها.

فيدخل في مسمىٰ (البرّ): الإيمان وأجزاؤه الظاهرة والباطنة، ولا ريب أن التقوىٰ جزء هذا المعنىٰ، وأكثر ما يعبر بالبر عن برّ القلب، وهو وجود طعم الإيمان فيه وحلاوته، وما يلزم ذلك من طمأنينته وسلامته وانشراحه وقوته وفرحه بالإيمان، **فإنّ للإيمان فرحة وحلاوة ولذاذة في القلب، فمن لم يجدها فهو فاقد للإيمان أو ناقصه**، وهو من القسم الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات:١٤] فهؤلاء علىٰ أصح القولين مسلمون غيرُ منافقين، وليسوا بمؤمنين إذ لم يدخل الإيمان في قلوبهم فيباشرها حقيقتُه.

هنا يبيِّن رَحِمَهُ اللهُ تعالى معنىٰ البر، وأنّ (البر) هذه كلمة جامعة للخير كله، لأنّ مدلول هذه اللفظة (البر) فيه شمولية، وفيه جمع لمعاني الخير واكتمالها واجتماعها، ولهذا لما يقال البَر، أو البار، أو الأبرار، تعني هذه الكلمة اجتماع معاني الخير والفضيلة، ولهذا يقول: (فالبر كلمةٌ لجميع أنواع الخير والكمال المطلوب من العبد)، إذا عُرف أن البر بهذا الشمول وهذه الجمعية للمعاني فالتقوىٰ داخلة في معناها، وداخلة فيما يشمله لفظها، (فيدخل في مسمَّىٰ البر الإيمان وأجزاؤه)، يدخل في مسمَّىٰ البر الدِّين كله، الدِّين كله داخلٌ في معنىٰ

هذه اللَّفظة، (وفي مقابلتها) كما جاء في الآية الكريمة جاء النَّهي عن (الإثم)، التَّعاون علىٰ البر والنهي عن التعاون علىٰ الإثم، وسيأتي أنَّ هذه الكلمة (الإثم) كلمة تجمع المعاصي كلَّها، والذُّنوب بأنواعها تجمعُها هذه الكلمة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفي حديث النّواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ قال له: «جئت تسأل عن البر والإثم؟») هذا اللفظ جاء عن النبي ﷺ في حديث وابصة بن معبد، وقد جاء إلىٰ النبي ﷺ وحوله أناس من أصحابه، وتقدم يدخل إلىٰ النبي ﷺ، وفي نفسه أن يسأل النبيَّ ﷺ عن البر، فقبل أن يسأل قال له النبي ﷺ: «**جئت تسأل عن البر والإثم؟**» ثم بيَّن له صلوات الله وسلامه عليه البر ما المراد به، والإثم ما المراد به، شاهد ابن القيم من ذلك أنّ كلمة البر يقابلها ماذا؟ الإثم، كلمة البر في مقابلها الإثم، فالبر كلمة تجمع الخير بأنواعه، والإثم كلمة تجمع الشر بأنواعه.

وهذا الصحابي جاء ليسأل عن شيء جامع، يعرف به البر ويعرف به الإثم، جاء يسأل عن هذا، وهذا فيه همة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في طلب الخير وطلب النجاة والسعادة والفلاح في الدُّنيا والآخرة، وحديث وابصة في سنده مقال، لكن له شواهد قوَّاه أهل العلم بها، منها هذا الحديث، حديث النّواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم، فقال: «**البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطَّلع عليه الناس**».

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (فيدخل في مسمَّىٰ البر الإيمان وأجزاؤه الظاهرة والباطنة)، يعني ما يتعلَّق بالقلوب من عقيدة وأعمال متنوِّعة هي أعمال القلوب، وأيضا ما يتعلق بأعمال البدن الظاهرة، هذه كلها داخلة في البر، فالبر ليس فقط أعمالًا ظاهرة؛ بل البر يتناول أعمال القلوب الباطنة التي لا تظهر ولا يطَّلع عليها إلا الله، كما يتناول أيضا أعمال البدن، ولهذا سيأتي تقرير هذا المعنىٰ في آية البر الجامعة من سورة البقرة.

نبَّه هنا ابن القيم علىٰ أمر جليل القدر فيما يتعلَّق بالبر، وهو الأساس الذي يقوم عليه البر، وهو ما يتعلَّق بذوق القلب لحلاوة الإيمان وطعم الإيمان؛ لأنّ هذا هو الأساس الذي يقوم عليه البر، فإنّ أساس البر عقيدة صحيحة تقوم في قلب العبد، هذا هو أساس البر ومُرتكزه، ولا يمكن أن يكون برٌّ مرضيٌّ مقبولٌ من العبد إلَّا إذا قام علىٰ معتقدٍ صحيح، فإن لم تكن الأعمال – أعني أعمال البر – قائمة علىٰ معتقدٍ صحيح، فإنها تذهب سُدًىٰ وتضيع هباءً، كما في السورة نفسها قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٥﴾ [المائدة]، أعمال البر لا تقوم إلا علىٰ ركيزة البر وأساسه الذي عليه قيامه، وهو صحة المعتقد، ولهذا أبرّ البر العقيدة الصحيحة؛ بل هي أساس البر الذي عليه قيامه، ولهذا سيأتي في آية البر ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ﴾ ؟ نعم ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ..﴾

[البقرة:١٧٧] هذا هو البر وهذا أساس البر والركيزة التي لا يقوم البر إلا عليها.

قال: (فمن لم يجد) هذا الذَّوق لحلاوة الإيمان في قلبه (فهو فاقد للإيمان أو ناقصه، وهو من القسم الذين قال الله فيهم: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾) لمَّا قال الله في حق هؤلاء ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ هل هم كفَّار!؟ الجواب: لا، علىٰ أصح قولي العلماء في معنىٰ الآية، وإنَّما هم مسلمون حدثاء عهد بإسلام لم يتمكَّن الإيمان في قلوبهم، دخلوا في الإسلام لكن لم يرتقوا إلىٰ درجة الإيمان، فادَّعوا لأنفسهم الإيمان (قالوا: آمنا) قال الله: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ ولو كانوا كفارًا غير مسلمين لم يصح أن يُقال: ﴿قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ فالصحيح في ما قيل في معنىٰ الآية والصحيح من القولين في معنىٰ الآية أنهم ليسوا كفارًا، لكنهم ضعفاء إسلام حدثاء عهد بإسلام ادّعوا لأنفسهم هذه المرتبة (قالوا آمنا) فقال الله: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾.

يقول ابن القيم: (من لم يجد) حلاوة الإيمان وطعمه في قلبه (فهو فاقد للإيمان أو ناقص) الإيمان، من القسم الثاني، أو (من القسم الذين قال الله فيهم: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾) لم تؤمنوا؛ أي: لم تصلوا إلىٰ درجة الإيمان، لأنّ من لم يذق هذه الحلاوة هذا الطعم لم يصل إلىٰ هذه المرتبة العلية من مراتب الدِّين، لأنّ الدِّين مراتب، إسلام ثم إيمان ثم إحسان وهو أعلىٰ الرُّتب.

وقد جمع الله تعالىٰ خصال البر في قوله: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [البقرة].

فأخبر سبحانه أنّ البر هو الإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذه هي أصول الإيمان الخمس التي لا قوام للإيمان إلا بها، وأنَّه الشرائع الظاهرة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنفقات الواجبة، وأنه الأعمال القلبية التي هي حقائقه، من الصبر والوفاء بالعهد، فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدِّين، حقائقه وشرائعه والأعمال المتعلقة بالجوارح وبالقلب وأصول الإيمان الخمس، ثم أخبر سبحانه أن هذه خصال التقوىٰ بعينها فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾.

ذكر هنا رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذه الآية العظيمة من سورة البقرة، وهي تُعرف عند بعض أهل العلم بآية البر؛ لأنها جمعت خصال البر، وبيّنت أنّ البر يشمل كما تقدم عند ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أجزاء الإيمان الظاهرة والباطنة، البر يشمل أجزاء الإيمان الظاهرة والباطنة، وجملةً في معنىٰ الآية جاء أنّ خصال البر علىٰ قسمين، عقيدة وشريعة، هذه خصال البر، عقيدة في صدر الآية ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ قال:

(وهذه أصول الإيمان الخمسة)، ولا إشكال في عدِّها ستة في حديث جبريل؛ لأنّ الإيمان بالقدر هو من الإيمان بالله، فالقدر قدرة الله ﷻ، فأصول الإيمان هي هذه الخمسة والقدَر داخل في الإيمان بالله ﷻ، لأنه من الإيمان بربوبية الله وتدبيره، وأنّ الأمر أمره ﷻ وطوع تصريفه وبإذنه ومشيئته، وأنه أحاط بكل شيء علما، فهو من الإيمان بالله ﷻ، ولهذا قال الإمام أحمد: القدر قدرة الله. فهذه أصول الإيمان الخمسة، ذُكرت في مقدمة خصال البر، وهذا يستفاد منه أنّ البر يقوم علىٰ هذه الركيزة التي هي العقيدة الصحيحة، القائمة علىٰ هذه الأصول، فيستفاد من ذلك أنّ أعمال البر كلها إن قام بها العبد لا تنفعه عند الله إن لم تكن قائمة علىٰ هذه الأصول التي بُدِئ بها وصُدّر بها في هذه الآية؛ لأنها أصول تقوم عليها أعمال البر وتتأسس، فأعمال البر أصول وفروع، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم].

فالعقيدة هي الأصل والأساس الذي يقوم عليه البر، ثم من بعد ذلك تأتي الشريعة التي هي الأعمال في قوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

في ضوء ما سبق نذكر خلاصة نافعة بإذن الله، الله ﷻ أمر بالتعاون علىٰ البر، وذكر ابن القيم رحمه الله هذه الآية آية البر، واستنبط منها أن البر يجمع خصال الخير كلِّها.

ففي ضوء ما تقدَّم فإنّ التعاون علىٰ البر يبدأ أوَّلا بالتعاون علىٰ تصحيح المعتقد، وإقامة الدين علىٰ أصله الصحيح الذي هو الإخلاص للمعبود، والإيمان بما أمر الله ﷻ عباده بالإيمان به من أصول الدِّين وقواعد الإيمان العظيمة التي لا يقوم الإيمان إلَّا عليها.

ثم من بعد ذلك التَّعاون علىٰ فرائض الإسلام العظيمة، والواجبات المتحتِّمة.

ثم من بعد ذلك التَّعاون علىٰ البُعد عن الحرام واجتناب الآثام.

ثم من بعد ذلك التعاون علىٰ الرغائب والمستحبات.

فهذه معاني البر التي أُمرنا بالتعاون عليها، يدخل في ذلك ما يتعلَّق بالباطن، وأساس ذلك العقيدة الصحيحة، ثم أعمال القلوب المتنوعة (الصدق والوفاء والتوكل والرجاء والخوف إلىٰ غير ذلك) هذه كلها ممَّا يُتعاون علىٰ تحقِيقها والعمل علىٰ تمكينها في القلوب، والتَّعاون علىٰ فرائض الإسلام وواجبات الدِّين العظيمة، والتعاون علىٰ البعد عن الآثام والمحرمات خاصة كبائر الإثم، ثم التعاون علىٰ الرغائب

والمستحبَّات، فهذا كله يتناوله قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾.

وأما التقوىٰ فحقيقتها: العمل بطاعة الله إيمانا واحتسابا، أمرا ونهيا، فيفعل ما أمر الله به إيمانا بالأمر وتصديقا بوعده وتصديقا بموعده، ويترك ما نهىٰ الله عنه إيمانا بالنهي وخوفا من وعيده، كما قال طلق بن حبيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا وقعت الفتنة فادفعوها بالتقوىٰ. قالوا وما التقوىٰ؟ قال: أن تعمل بطاعة الله علىٰ نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله علىٰ نور من الله تخاف عقاب الله.

وهذه من أحسن ما قيل في حد التقوىٰ.

فإنّ كل عمل لابد له من مبدأ وغاية، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتىٰ يكون مصدره عن الإيمان، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض لا العادة ولا الهوىٰ ولا طلب المحمدة والجاه وغير ذلك؛ بل لابد أن يكون مبدؤه محض الإيمان، وغايته ثواب الله تعالىٰ وابتغاء مرضاته وهو الاحتساب، ولهذا كثيرا ما يُقرن بين هذين الأصلين في مثل قول النبيِّ ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا**» و«**من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا**» ونظائره.

هنا ذكر الجانب الثاني مما أمر الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتعاون عليه وهو التقوىٰ، فذكر حقيقة التقوىٰ وأنها هي العمل بالطاعة، طاعة الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إيمانًا واحتسابًا، إيمانا: أي بالله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واحتسابا للأجر والثواب الذي أعده الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للمطيعين، وتشمل التَّقوىٰ عند الإطلاق فعل الأوامر وترك النواهي.

ثم ذكر هذه الكلمة العظيمة الجامعة في تعريف التقوىٰ لطلق بن حبيب، وهو من علماء التابعين، ذكرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ عندما سئل عن كيف تُتَّقىٰ الفتنة؟ ما الذي تتقىٰ به الفتن؟ فقال: اتقوها بالتقوىٰ. أو ادفعوها بالتقوىٰ، فسألوه حينئذ: ما التقوىٰ؟ فذكر هذا التعريف الجامع الذي هو كما ذكر ابن القيم من أحسن ما قيل في حدِّ التقوىٰ، وأخذ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ يوضِّح المعنىٰ من خلال هذا الأثر، وأيضا شرحه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ شرحا نفيسا نافعًا مفيدا، فيؤجَّل ما يتعلق بموضوع التَّقوىٰ إلىٰ لقاء الغد بإذن الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأيضا ما يتعلق بهذا الأثر العظيم في حدِّ التقوىٰ وهو من أحسن ما قيل في حدها، يؤجل إلىٰ لقاء الغد بإذن الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

نسأل الله الكريم أن ينفعنا بما علمنا وأن يزيدنا علما، وأن يُصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، إنه تعالىٰ سميعُ الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.